لأنه، أي السيد، «ليس ممن يتشبثون بوجوب تعليم دين بعينه أو قاعدة اخلاقية معينة»(٥).

أَلَم تكن تلك الافكار التي طرحها لطفي السيد هي ذاتها التي انبنى عليها الخطاب الليبرالي كما مثّله حزب الوفد وانشقاقاته: حزب الاحرار الدستوريين، والحزب السعدي، والكتلة الوفدية، وكما عبر عنه المثقفون الليبراليون: طه حسين، ومحمد حسين هيكل، ومحمود عباس العقاد؛ وهم، وان اختلفوا فيما بينهم، فقد اتفقوا على «تلازم ضروري» بين النهضة/ التقدم (الاستقلال والدستور) وبين الوطنية الليبرالية العلمانية. ولذلك، عندما قامت ثورة ١٩١٩ في مصر، كان ذلك تحت شعار الجامعة المصرية بحسبانها قومية مصرية محددة. وعلى الرغم من انه كان مضى على وعد بلفور عامان، الّا انه، بدعوى «القومية المصرية»، لم تستشعر الجماعة الليبرالية في الصهيونية خطراً. فقد كان الخطر يتجسد لها في الاحتلال البريطاني. وبدعوة علمانية ليبرالية مغلوطة، تعاطف بعض الليبراليين المصريين مع الوجود اليهودي في فلسطين، وتسامح البعض الاخر مع الوجود الصهيوني في مصر. وظل الامر كذلك حتى منتصف الثلاثينات.

وبعدما توصلت الليبرالية المصرية الى معاهدة مع المحتل البريطاني، ونشبت الانتفاضة الفلسطينية، ووصل الاخوان المسلمون ومصر الفتاة الحركة الوطنية في مصر بالحركة العربية في فلسطين، بدأت الجماعة الليبرالية تستشعر الخطر الصهيوني، لتدرك، متأخراً، ان الحفاظ على الجماعة المصرية أكبر من أن تستوعبه الجامعة المصرية، وان الخطر على فلسطين هو خطر على مصر ذاتها، وان ردّ ذلك الخطر لا يكفله الّا الانتماء الى جامعة سياسية أعمّ.

وعندما أعلنت الصهيونية عن اقامة دولتها اسرائيل على أرض فلسطين، في ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨، دخلت الليبرالية المصرية معركتها الفاصلة هناك، فلقيت هزيمتها وسقط مشروعها. وبالاجمال، ان الخطاب الليبرالي الذي لازم بين النهضة والوطنية، أو بين الاستقلال والحياة الدستورية والجماعة الوطنية المصرية، كان يعكس وعياً مزيفاً بالذات المصرية. وقد تبدّى ذلك الوعي المزيف في سحبه للذات من الجامعة العربية، وفي اختزاله للخطر الذي يواجهها بالاستعمار البريطاني دون الاستعمار الصهيوني. وكان ذلك التلازم هو الاساس الموضوعي للهزيمة والسقوط.

لقد استخلص سعد باشا زغلول، زعيم ثورة ١٩١٩ وحزب الوفد، ان فكرة الوحدة العربية معادلة صعبة وفاشلة، فكان يردد، دائماً، ان «صفراً زائد صفر يساوي صفراً. فكيف نقيم وحدة عربية وبلادنا ما زالت محتلة؛ فلا بد من الاستقلال أولاً؛ ثم الالتفات، أو الاهتمام، بعد ذلك، بما هو خارج حدود بلادنا»(٦).

وعلى الرغم من ان زغلول رفض ان يجمع الصفر على الصفر، وركز على استقلال مصر أولاً، فانه لم يتصور استقلال مصر دون السودان. ففي حديث اجراه مع صحيفة المانية، في حزيران (يونيو) ١٩٢٤، قال: «لا يمكن القول ان مصر حرة دون السودان... ذلك ان امتلاك السودان معناه حكم مصر... ان لانجلترا بالسودان وسيلة للضغط تستطيع بها ان تخفق كل رأي سياسي يدلي به الشعب المصري»(٧).

بيد ان تركيز زعيم الوفد على قضية استقلال مصر أولاً، وقضية السودان ثانياً، جعله يغض الطرف عمّا يحدث خارج «وادي النيل». هذا من جانب. ومن جانب آخر، فان علمانية «الوفد» كانت، في البداية، وراء الحرص على شعور يهود مصر وتجاهل ما يحدث لعرب فلسطين.

وفي هذا السياق، «عامل سعد زغلول باشا اليهود معاملة أهل البلاد الوطنيين، الى حد انه